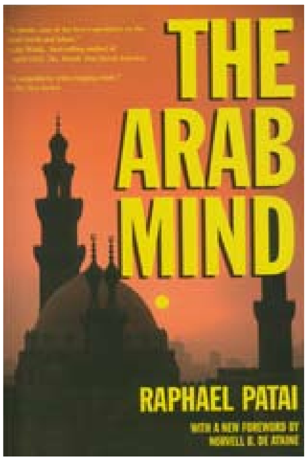

العقل العربي 66

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل السادس عشر
التحليل النفسي للتغريب

3. قضية الهيمنة التكنولوجية

إن المواجهة الراهنة بين العرب والغرب ذات أبعاد عاطفية ليس من السهل فرزها. فعلى المستوى التاريخي، ينظر العرب إلى الغرب على أنه تلميذ شاب تغلب على أستاذه السابق (الحضارة العربية في العصور الوسطى) وأهمله؛ والآن جاء دور العرب ليجلسوا عند قدمي تلميذهم السابق، وهو أمر لا يمكن تقبله عاطفيا. إذا ما تفحصنا هذه القضية على المستوى النظري فلن نجد لها أهمية كبيرة؛ إذ كان من السهل نسبيا توجيه النصح للعرب بان امتلاك العلوم الغربية هي الطريق إلى التحرر من الهيمنة الغربية، وهذا هو بالضبط ما فعله جمال الدين الأفغاني في وقت مبكر عام 1882. فقد أدرك الأفغاني، وهو من أعظم أعلام الإسلام في العصر الحديث، وشدد على أن فتوحات بريطانيا وفرنسا في الشرق الأوسط، ومن تونس إلى أفغانستان، لم تكن لتحصل لولا العلم، ولهذا ينبغي على العرب أن يكتسبوا العلوم إن رغبوا بتحرير أنفسهم من الهيمنة الغربية؛ فيقول: «في الواقع، لم يأت هذا الاستيلاء والعدوان والفتوحات من الفرنسيين أو الانكليز، وإنما جاء من العلم الذي يظهر عظمته وقوته في كل مكان».

وباستكشاف أبعاد فكرة الأفغاني، يلاحظ نورمان دانييل (Norman Daniel)، وهو خبير بالشؤون العربية في المجلس البريطاني وأمضى 16 عاما في الدول العربية، أنه في «النصف الثاني من القرن العشرين أصبح الإحساس بآثار التقدم التكنولوجي الغربي أكثر انتشارا مما كان عليه في عهد الهيمنة الامبريالية» في القرن التاسع عشر، وأن هذا «من الأسباب لوجود قدر أكبر من الحقد المر» على الغرب في العالم العربي في الوقت الحاضر مقارنة بما مضى. وبعد سرد قائمة طويلة من «نفائس الغرباء» التي وجد العربي نفسه ينشأ

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

محاطا بها. يصل دانييل إلى نتيجة مفادها أن «من الواضح لأي عربي أن العالم الذي ولد فيه تهيمن عليه التكنولوجيا الغربية».

هذا، بدوره، ينشأ عنه مطالبة الدول العربية بالتنمية الصناعية، والتي ترى فيها هذه الدول الطريق الوحيد المؤدي للتحرر من الهيمنة الصناعية للغرب. وعندما نصح خبراء الاقتصاد الغربيين الدول العربية بأن «يركزوا على تنمية مواردهم الزراعية الطبيعية، وترك التنمية الصناعية للدول المؤهلة بشكل أفضل لهذه الغاية» غضب العرب من هذه النصيحة الاقتصادية المخلصة؛ بل إنهم رأوا فيها «خدعة لنهب موارد قوة الدول غير المتقدمة». وكان لهذا الموقف ما يوازيه حينما اتخذ العرب موقفا شديد الشبه في ميدان مختلف ولكنه ذو علاقة بما سبق، إذ اتهموا الغرب بأنه يحجب، لغاية في نفسه، التعليم التكنولوجي عن العرب مما منعهم من تحرير أنفسهم. وعلى الرغم من أن أمثال هذه الادعاءات تعبر بصراحة عن الشعور العربي بأن العرب لا يزالون عاجزين عن اللحاق بركب التكنولوجيا الغربية؛ فإنهم نقلوا الملامة في المسؤولية عن هذه الحالة من أنفسهم إلى الغرب.

ليس هنالك شك في تحمس العرب، من القادرين على توفير الأموال اللازمة، لامتلاك الآلات والأدوات ومستلزمات المنزل التي لا يستغنى عنها، وأضف إلى ذلك وسائل الرفاهية أيضا. وخلال الصراع العربي لنيل الاستقلال السياسي، أدرك العرب سريعا أن الطريقة الوحيدة لقتال الغرب هي باستعمال أسلحته؛ ومن هنا اكتسبت التكنولوجيا الغربية قيمة مهمة إضافية: إذ أصبحت الأداة لتحرير الدول العربية من الحكم الغربي. وعندما تم تحقيق الاستقلال، أصبح التدفق المستمر للنفائس الغربية على الدول العربية المتحررة حديثا (وبالتالي: ذات التحسس المضاعف ضد أي مظهر لبقايا الهيمنة الغربية) ينظر إليها باستهجان متزايد. وكان السؤال الذي يطرح بكثرة: ما فائدة الاستقلال السياسي إذا بقينا تابعين للغرب على الصعيد التكنولوجي، ومن ثم الاقتصادي؟ أليست هذه عبودية؟

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

وكانت الإجابة على السؤال تتمثل في السعي إلى التقدم التكنولوجي والاقتصادي. لكن عقبات خطيرة ما لبثت أن ظهرت في الطريق إلى تحقيق ذلك.

من بين العقبات: أن العالم العربي على نحو عام فقير نسبيا بالمواد الخام اللازمة لتحقيق تنمية صناعية مهمة، باستثناء النفط الذي يعد لوحده مخزونا هائلا. كما إن الشركات الخاصة المتوسطة التي لعبت دورا مهما في الغرب (ثم في اليابان) فشلت في معظم الدول العربية، وتم تثبيطها من خلال التأميم في مصر والعراق وسوريا. وثمة عقبة خطيرة أخرى في طريق الاستقلال الاقتصادي تتمثل في مجموعة خاصة من الصفات التي تتصف بها الأخلاقيات العربية، وهو ما ناقشناه من قبل في الفصل الخامس من هذا الكتاب. فإحجام العربي عن «تلويث يديه» بالعمل اليدوي يعدّ من الصفات التي لا يمكن التغلب عليها بسهولة؛ ويضاف إليها النسخة العربية الخاصة من الميل العام لدى شعوب البحر الأبيض المتوسط إلى التأجيل، فالميل إلى ترك الأمور دون إنجاز إلى أن يتوفر سبب فوري قاهر هو من الصفات التي نجد لها عند العرب قبولا وتعبيرا يفوق ما لدى جيرانهم من شعوب السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط. إن المركب المتكون من مزيج هذه الصفات أدى إلى مناخ فكري لا يشجع على الصناعة؛ فمن بين الأمور التي تتطلبها الصناعة ينبغي توفر انتباه واعٍ للصيانة بدءا من الإصلاحات الصغيرة الطارئة إلى الأعطال الكبرى، ولكن الصفات التي أشرنا إليها تعيق الصيانة الدورية وتؤدي إلى العديد من المشكلات عند محاولة تشغيل الآلات الصناعية بفعالية.

إنني لا أدعي هنا أن الصفات التي تجعل جهود التصنيع مهمة شاقة هي صفات خاصة بالعقل العربي؛ وإنما على العكس من ذلك، فالشخصية الوطنية للشعوب الغربية المتشربة بما يدعوه ماكس فيبر «الأخلاقيات البروتستانتية»، هي الشخصية الغربية الوحيدة التي تمتلك صفات توفر بيئة ملائمة تماما للصناعة. فحتى في الغرب الحديث هنالك ما يسمى بالمناخ الجنوبي الذي يمثله شعوب سواحل المتوسط، وفيه لا تكون الصناعة ذات شأن: ويمكنك أن تلاحظ الفارق بين التقدم الصناعي في شمال إيطاليا

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

واسبانيا، والواقع الريفي الفقير في جنوبهما. وإذا ما خرجنا من الغرب، فسنجد أن الصناعة لم تضرب جذورها إلا في بعض الحالات الاستثنائية فحسب؛ ومن المثير أن نلاحظ أن في هذه الحالات، ومنها اليابان، لم يسد شعور بأن التكنولوجيا الغربية الحديثة أمر غريب يهدد الثقافة المحلية التقليدية، وذلك على الرغم من أن هذه الثقافة كانت تفتقر إلى مكون تكنولوجي أصيل. ويبدو هنا أن السبب الأساسي للاختلاف بين النجاح الهائل للصناعة اليابانية والنتائج الضئيلة للصناعة في الدول العربية إنما يجب أن يتم البحث عنه في تحليل اختلاف الشخصية الوطنية عند اليابانيين والعرب.

يلاحظ المستعرب السويسري هانز توتش (Hans E. Tutsch) أن العرب يعون الحقيقة القائلة بأن التكنولوجيا التي هيمنت على طريقتهم في الحياة إلى درجة لا تكاد تحد إنما هي تكنولوجيا الأمم الغريبة. ولا يوجد على امتداد العالم العربي أي إنتاج تكنولوجي معين لا يعتمد على مراكز الإنتاج الكبرى في العالم الغربي. إن هذا التخلف التكنولوجي، كما يستنتج توتش، يعود إلى النظرة العامة الثابتة التي يبدو فيها تعطش الغرب إلى المعرفة ونظرياتها أمرا غريبا. فالعالم العربي، والشرق الأوسط عموما، يؤمن بأنه يملك فعلا الإجابات على كل أسئلة الحياة البسيطة؛ ولهذا لا يوجد في العالم العربي من «يتفكر في غوامض ما يحيط به من أمور مرئية وغير مرئية»، وليس هنالك مولعون بشعار «افعلها بنفسك»، و«لا مخابر، ولا مدارس فلسفية لا تسيجها أسوار العقائد الثابتة (الدوغما)».

وفي ما يخص موقف العرب من التكنولوجيا، يجب التمييز بوضوح بين استخدامهم للمنتجات التكنولوجية، وبين عزمهم أو قدرتهم على الانخراط في عملية إنتاج تكنولوجي. فمن الملاحظ دائما أن العرب عازمون، وحتى أنهم متحمسون، على القبول بكل ما يقدمه الغرب لهم على شكل آلات أو أدوات، ولكن المشكلة تنشأ في ما يتعلق بالجوانب الإنتاجية من التكنولوجيا. إذ أن الأسس التي تنهض عليها التكنولوجيا لا تزال غير مستكشفة لديهم، ولا يزال من الغريب عليهم أن «يصنعوا» تلك الآلات والمعدات، وهو أمر يختلف تماما عن «استخدامها». يقول جورج كيتمان (Georges Ketman)، وهو كاتب فرنسي ولد في

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

القاهرة عام 1927 من أصول سورية وأفغانية وألمانية، أن الإخفاق الأخطر للعرب في العالم الحديث يكمن في «عجزهم على إتقان لغة التكنولوجيا». وبالرغم من أن هذه الطريقة في تناول الموضوع تتصف بتبسيط واضح، فإنه لا شك في أن العرب من ضمن شعوب كثيرة لا تحتوي شخصيتها الوطنية على تربة صالحة لنمو الصناعة على نحو تلقائي، وهذا لا يعني أن الدول العربية ليس بإمكانها تحقيق نهضة صناعية، أو أنها لن تبلغها أبدا؛ والحقيقة تقول بأن جهودا هائلة تبذل في هذا الاتجاه في عدد من الدول العربية، ولكن مما لا شك فيه أن هذه العملية ستكون بطيئة وشاقة؛ فهي ستتطلب جهدا عظيما في مجال إعادة التعليم، وخلال هذه العملية ينبغي أن تدخل تعديلات على الهيئة الكلية للشخصية القومية العربية.

أضف إلى ما سبق أن عزوف العرب عن الإنتاج التكنولوجي لا يعني فقدانهم لملَكة التكنولوجيا. ففي الماضي اخترع العرب واستخدموا أدوات تكنولوجية بارعة من بينها نواعير الماء الضخمة التي تنقل الماء من الأنهار، وأبراج الريح التي توجه النسيم العليل من السقف إلى الغرف التي تقع تحته، وقنوات الماء المبنية تحت سطح الأرض. كما تفوق العرب في صناعة السفن، والأنسجة والسجاد، والفولاذ والنحاس، والعديد من الحقول التكنولوجية الأخرى. لكن العصر الذهبي لهذه المهارات مضى عليه زمن طويل، وكثير من الحِرَف إما اضمحل أو اختفى تماما، وانتهت المنشآت الصناعية القديمة لتقع في يد الإهمال. ونتيجة لذلك، كان من بين الصعوبات الأساسية التي واجهت تقديم التكنولوجيا الحديثة إلى العالم العربي تتمثل في أن مثل هذه المحاولة ينبغي عليها، من بين عدة أمور، أن تتغلب على مشكلة إيصال المهارات التكنولوجية إلى شعب لم يكد يجد لعدة أجيال فرصة استثمار أية ملَكة لديه في هذا المجال. وثمة مشكلة أخرى تتعلق بالأمر ذاته، وهي أن المهارات التكنولوجية لا يمكن أن يمتلكها إلا شعب لديه مصلحة فيها أو ميل إلى تطويرها، ولكن الازدراء التقليدي لدى العرب تجاه العمل اليدوي يقوم دائما بالحيلولة دون نجاح مثل هذا المسعى.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©